**“العائلة حاضنة الحياة”**

وهي

الرسالة الراعويّة الحادية عشرة

التي يوجّهها

**سيادة المطران أنطوان – نبيل العنداري**

إلى أبناء الأبرشيّة البطريركيّة المارونيّة

في منطقة جونية

إكليروساً وعلمانيّين

بمناسبة

**عيد العنصرة**

12 حزيران 2011

آبــــــائي الأجـــلاّء،

أخواتي الفاضلات،

أيـهــــا الإخوة والأبناء الأحباء،

سلامُ الرب معكم!

**المقدّمة:**

دعا قداسة البابا بندكتوس السادس عشر إلى المشاركة في اللقاء العالمي السابع للعائلات الذي سينعقد في ميلانو – إيطاليا برعايته وحضوره في العام المقبل، من الثلاثين من شهر أيار إلى الثالث من حزيران سنة 2012، تحت عنوان:”العائلة: العمل والعيد”.

وبما أنَّ »مستقبل البشريّة يمرّ بالأسرة« (إرشاد رسولي في وظائف العائلة البشريّة 68 .C.F)، فإنَّ مواضيع اللقاءات العالمية والمؤتمرات الإقليمية والمحلّية بشأن العائلة تُسَلِّطُ الأضواء على مواضيع أساسية وضرورية ترتبطُ ارتباطًا وثيقًا في حياة العائلات.

وعلى غرار بعض هذه المعالجات المتنوِّعة أمثال “العائلة: قلب حضارة المحّبة”، و”العائلة: هبة والتزام ورجاء البشريّة”، و”الأولاد ربيع العائلة والمجتمع”، و”العائلة مُنَشِّئة على القيم الإنسانية والروحية”، والعائلة صانعة البشارة«، نوَدُّ أن نتطرَّقَ معكم، في هذه الرسالة الراعوية الحادية عشرة، إلى موضوع »العائلة حاضنة الحياة« نظرًا لأهميته، وإلى التحدّيات التي تواجه عائلاتنا وتجتاح حصن المفاهيم في مجتمعنا، وإلى عمق المعاناة التي تتنامى عبرَ غزو العولمة والإعلام والإعلان تراثنا من مفاهيم وعادات وتقاليد عائلية راسخة ومألوفة، فزرعت فيها البلبلة وزعزعت القيم وزادت من أخطار التفكك العائلي، لتستبدل ثقافة الحياةِ بثقافةِ الموت. أَوَليست دعوة العائلة، في قلبِ الكنيسة والمجتمع، استقبالَ الحياة وتعزيزها لتستمرَّ مكانًا للحب والمشاركة والفرح والانتماء والنمو والانفتاح؟

ولا شكَّ أنَّ دِقَةَ الموضوع تحتاجُ إلى توضيحِ المفهومِ الأساسي للعائلة وطبيعتها واعتبارِ موقِعها في تصميمِ الله.

**1- طبيعة العائلة:**

تُشَكِّلُ العائلةُ نواة المجتمع الطبيعي في الواقع والبيئة الحياتية التي تنمو فيها. إنها تستحضر فينا خلاصة العواطف والمشاعر التي نعيشها، ومجموعة القيم التي تتيح لنا تذوّق طعم الحياة، إنها الميراث المادّي والأدبي والروحي الذي نقله إلينا الآباء والأجداد. ولقد أسّسها الخالق على الشركة العميقة والإتحاد الوثيق في الحبِّ والحياة التي يُؤلفها الزوجان. إنها شركة إيمانٍ ومحبة ورجاء. ولها في الكنيسة أهميّة خاصّة كما يبدو ذلك في العهد الجديد. أجل، إنَّ الأُسرة المسيحية هي اتّحادُ أشخاص، هي أثرٌ وصورةٌ لاتحاد الآب والابن في الروح القدس. وعملها في الانجاب والتنشئة هو انعكاس عمل الآب الخالق. إنها مَدعوّةٌ للمشاركة في صلاة المسيح وذبيحته، والصلاة اليوميّة وقراءة كلام الله يقوّيان فيها المحبة (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية عدد 2205). وتستتبع العلائق ضمن العائلة تقاربًا في العواطف والودّ والمصالح يتأتّى خصوصًا من الاحترام المتبادل بين الأشخاص. فالشركة الزوجية الحقيقية والناجحة تستدعي اتفاقًا في الرأي واشتراكًا للوالدين في تربية الأبناء. إنَّ حضور الأب حُضورًا فَعّالاً له أهميّة بالغة في التربية؛ كما أنَّ حُضورَ الأمِّ يُوَفِّر العناية لعائلتها، لأنَّ الأولادَ، وبخاصة الأحداث، هم بأشَدِّ الحاجة إليها.

لا شكَ أن كرامة العائلة قد يعتريها الشحوب من جرّاء وباء الطلاق، ومما يُسمَّى بالحُبِ الحر، ومن سائر الإنحرافات. أضف الى ذلكَ أنَّ الحُبَّ الزوجي غالبًا ما تنتهكه الأنانية واللذة والعادات غير المشروعة التي تحول دون الولادة. كما أن الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والنفسية المنتشرة في عالمنا أدخلت أيضًا على العائلة تشويشات خطيرة.

لذلك تتوخى الكنيسة وجميع الغيارى على العائلة توضيح بعض نقاط تعليم الكنيسة، وتنوير وتشجيع الأزواج على كرامة الحالة الزوجية الأصلية وعلى قيمتها المقدّسة الممَّيزة وإعلاءِ شأنها. ويجب التأكيد على أنَّ خصبَ الحُبِّ الزوجي لا يقتصر على إنجاب الأولاد فحسب، ولكن يجب أن يمتدَّ إلى تنشئتهم الخلقيّة وتربيتهم الروحيّة.

لا بدَّ من التأكيد، مرّةً أخرى، أن الأزواج يعرفون بأنهم يترجمون حُبَّ الله الخالق عندما يقومون بواجبهم المُلقى على عاتقهم في نقل الحياة وتربية الأولاد. وليعلموا أنه لا يمكنهم أن يتصرّفوا في حياتهم، كما يحلو لهم، بل أن يتَّبِعوا دائمًا ضميرهم، ذلك الضمير الذي يجب أن يُطابق شريعة الله، فالشريعة الإلهية هذه تُطَهِرُ المعنى الكامل للحب الزوجي، وتحافظ عليه وتبلغ به إلى الكمال الإنساني الحق.

**2- تحوّلات عميقة:**

غالبًا ما نسمع في أوساطنا الكنسيّة والإجتماعية تشّكيات عن العائلة. ولا تعبّر هذه التشكيّات عن أسف وحسرة فحسب، بل عن آلام ومعاناة. لا تشكّل هذه التشكيّات، بالطبع، إِتّهامًا أو إِدّعاءً ما، لكنها دلائل ألمٍ: ألم الأهل الذين ظنّوا وتمنّوا لو كان بإمكانهم نقل ميراثهم الثقافي والروحي إلى أولادهم، وتولّد لديهم شعورًا بالفشل وخيبة الأمل. لذلك نسمع الأهل يتناولون أمورًا عديدة، ومنها بعض التساؤلات: بماذا أخلفنا وأخفقنا؟ بماذا أخطأنا؟ في أي وقت من الأوقات أسأنا الفهم، وفي أي مكان خُدِعنا؟ هل كان بالإمكان التصرّف على نَحوٍ مُغايِر؟

يُشير هذا النوع من الأسئلة إلى إحساس بالذنب، ويُظهر حجم الخيبات بالنسبة إلى الآمال الكبيرة التي لم يدركوها. غير أنَّ هذه الأبعاد من الإنحطاط والقلق تدلّ على أزمة ثقافية جسيمة، إن لم نقل خطيرة، تتجاوز مسألة العائلة.

لقد واكبنا، منذ سنوات، تحوّلات متكاملة على صعيد السلوكيات والتعليلات. ومهما قيلَ عن هذه التحوّلات فقد أفقدت الثقة ليس بالعائلة وحدها بل تعدَّتها على نطاق أوسع لتشمُلَ المنظمّات والمؤسسات المعنيّة بإيصال ونقل البرامج والمشاريع الجماعية في المجتمع. فالأزمة الثقافية التي نُعاني منها ليست زلزالاً يُقلق ويبلبل العائلة، بل انهيارًا يَهزُّ مجالات الحياة العامة والاجتماعية كافة. وما نعنيه عن أزمة العائلة، ينسحب أيضًا على المدرسة. إنها أزمة مجتمع نشهد فيها زعزعة بُنية عناصر الحياة الجماعية.

إن تهديم البُنية هذه له أثر كبير على العائلة بصورة خاصة. لقد أصبحَ الكلامُ عن العائلة بحاجة إلى صفاتٍ أو نعوتٍ لتوضيحِ طبيعتها، أمثال: العائلة المستقرّة مما يَعني أن هناك عائلات غير مستقرة، والعائلة التقليدية أي أن هناك عائلات غير تقليدية وذات نموذج جديد، والعائلة المفكّكة، والعائلة الآحادية الوالِدَين... وهل يغيبُ عن بالنا ما نَلحظُهُ في بعض المجتمعات عن مفاهيم الزواج الحر، والمساكنة وما إليها...؟

**3- تحدّيات جديدة:**

ذَكَّرَ المجمع البطريركي الماروني، في النصّ العاشر حول العائلة المارونية، بمجموعة عوامل أدّت إلى واقع جديد تحوَّل فيه النموذج العائلي “من العائلة الكبيرة إلى العائلة النواتيّة”، مع ما يستتبع هذا التحوّل من انحسارٍ لدورِ العائلة الاجتماعي والاقتصادي والديني والوطني. شملَ تعداد هذه العوامل: النموّ السكاني، التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتطوّر الظروف الحياتية، وواقع الهجرة، ودخول المرأة معترك العمل خارج البيت وما له من تأثير على حياة العائلة والحياة العامّة، وحركة الهجرة والتهجير من الجبل إلى المدينة ومن لبنان إلى المهجر (عدد 19).

إن القراءة المُعَمَّقة لهذا الوضع الراهن تستدعي إبراز التحدّيات الناشئة عنها، وقد لخَّصها المجمع البطريركي الماروني بأربعة: التحدّيات الثقافية والدينية، التحدّيات الاجتماعية، التحدّيات الأخلاقية، وبعض الأوضاع الخاصّة الناشئة عنها.

تتناول التحدّيات الثقافية والدينية: الإلتباس في جوهر الإيمان وبروز النزعة المادّية، القائمة على تغذية روح الفردّية، ومنطق الربح السريع وقلب سلّم القيم. كما أن الذهنية الاستهلاكية ونمط العيش الاستهلاكي باتَ يطال قطاعات الحياة كافة، الجنسّية منها والثقافية والحياة الروحية والرعوية وعيش القيم الإنجيلية.

أما التحدّيات الاجتماعيّة فقد ساهم تبدّل الأوضاع الاقتصادية والثقافية المتسارعة في تبدّل النموذج العائلي، فتقلّصت مساحة روابطه، وأدّى في بعضِ الحالات إلى هجرة الأب، أو إلى عمل الزوجين المستمرّ وحرمان الأولاد من حضورهما، وإلى توَتُّرٍ وتعب أفرزا علاقات سيّئة. ورزحت العائلة تحت أعباء الطبابة والتعليم والمسكن وسواها... كما وجدت العائلة نفسها أمام تحدٍّ كبير يوجب عليها أن تواكبَ مسيرةُ التغيير دون أن تتنكَّرَ لرسالتها حاضنةَ للحياة وحُصنًا للقيم.

تحملُ التحدّيات الأخلاقيّة في طيّاتها مزالقَ عديدة نتيجةَ التعدّدية الثقافية، والعولمة، وسهولة الإتصال، والتبادل، والتعرّف على الأنماط المغايرة. لا تكمنُ الأخطار في التطوّر العلمي بحدّ ذاته، وتَفتُّح قدرة الإنسان، والوعي المُبكِر الذي يُعَزِّزُ الحُرّية المسؤولة. لكنَّ الانجرافَ في تيارات تفشّي الروح المادّية، والذهنية الاستهلاكية، والإباحية الجنسية، يضع العائلة أمام تفاقم التحدّيات الأخلاقية، في أكثر من مجال، فلا تقوى على مواجهتها. فباسم المفهوم الخاطيء للحُريّة والحب يستبيح المرءُ ما يشاء، بينما المفهوم الصحيح والتنشئة الصحيحة على الحُرّية والحب يُثمران مسؤوليةً وتضامُنًا وبنيانًا للذات وللآخر. وما القول في الجهل الكبير أو التجاهل لتعاليم الكنيسة في مواضيع أخلاقيات الحياة لدى نسبةٍ لا بأس بها من الأزواج والأطبّاء والمستشفيات. إذا ما عزَّزت العلوم والتقنيّات الحياة في مواجهتها الأمراض والآفات، فإنّها قدَّمت بالمقابل حلولاً تتعرَّضُ لكرامَةِ الحياةِ البشرية، ولمفهوم الحُب الزوجي ومبدأ ارتباطه بالحياة، مما يُسَهِّل اعتمادَ الحلِّ السهل والتشجيع على الإجهاض.

وفي تعدادِ بعض الأوضاع الخاصّة، تُعاني العائلة من عبءِ هذه الأوضاع نتيجةً لما ذكرنا سابقًا من عولمة، وشأن إقتصادي، وأحداثِ الحرب المشؤومة. ويكفي أن نستعرضَ بعض العناوين في التفكك العائلي وأوضاع المُسِنّين والمهمّشين والمسجونين والمرضى والمعاقين، لِنُدرِك حجمَ هذه الأوضاع التي تتطلّب حمايةً ورعاية للحَدِّ من أخطار هذه التحدّيات.

**4- نماذج ثلاثة من المواجهة:**

يكشف الكتاب المقدّس، منذ بدء التاريخ البشري، أن عهدَ الله مع الإنسان مَنسوجٌ من ذكرياتِ عطاءِ الله الحياةَ البشرّية. وأنَّ حُبَّ الحياة يبقى مبدأً أساسيًا في الأخلاق. فمن حَقِّ الإنسان أن يعيشَ وَيُدافَع عن حياته، وأن يجعل الآخرين يحترمونَ حقَّهُ في الحياة. لذلك نعرض لنماذج ثلاثة من المواجهة أمام تحدّيات أخطار الحياة: الإجهاض والإعاقة وحرمان الأولاد.

**أ- الإجهاض:**

أكدّت الكنيسة منذ القرن الأول شَرَّ كلِّ إجهاض مُفتعَل على الصعيد الأخلاقي. وهذا التعليم لم يّتغيّر وهو باقٍ دونَ تعديل. "قد عهدَ الله - سيّد الحياة والموت - إلى البشر مهمّة الحفاظ على الحياة، وهي مهمّة شريفَة يَجدُرُ بالإنسان أن يقومَ بها قيامَا يليق به. فالحياةُ منذُ وجودها بالحَبَل، يَجِبُ الحفاظُ عليها بكلِ عناية. الإجهاضُ وقَتلُ الأجِنَّة هما جريمتان مُنكرَتان« (الوثائق المجمعية ك ع ، عدد 51). وجاءَ في سياق تعاليم الديداكية توصيةً في غاية الوضوح تتناول الإجهاض كما يلي: "لا تقتل الجنين بالإجهاض، ولا تُهلِك المولودَ الجديد" (عدد 2:2). فلا بُدَّ إذًا من احترام الحياةِ البَشرّية وصيانتها، على وجه مُطلَق، منذُ أول لحظةٍ من الحياة. لقد قالَ الربُّ على لسانِ إرميا النبي: "قبلَ أن أصَوِّركَ في البطنِ عَرفتُكَ وقبلَ أن تخرُجَ من الرَّحِمِ قدَّستُكَ" (إر 1 :5). إنَّ حقَّ الحياة هذا، هو حَقُّ مقدَّس لكُلِّ فَردٍ بشريٍّ بريءٍ في الحياة، وهو حَقٌ لا يُمكِنُ التنازلُ عنه، فهو عُنصرٌ من العناصر المُكوِّنةِ للكنيسةِ والمُجتمع.

ولا يمكننا أن نتجاهل المسائل المطروحة على الأزواج أمام الإجهاض. فالحَبَلُ يخلق وضعًا جديدًا في قلب العائلة. إنَّه حَدَثٌ مهم يتناول أوضاع العائلة في الصميم. فالراغبون بالإنجاب تغمرهم نشوة الفرح ويستعدّون لاستقبال المولود الموعود بكل تأنٍّ وعناية. أما الرافضون للإنجاب أو الرازحون تحت وطأة الأعباء الإقتصادية، أو المتفاجئون من حَبَلٍ غير مُنتظَر، فتختلف مواقفهم وقرارتهم باختلاف أوضاعهم وإيمانهم وتربيتهم وقناعتهم.

لا شك أنَّ المسألة تُشكِّلُ حادِثَ ضمير لِمَن يَحتكِمُ إلى الضمير. أما الأزواج الذين يرضخون لمنطق التراخي والسهولة أو المنحرفون في ذهنيّة الأنانية والإستهلاك والمُتعة الجنسيّة، فإنَّهم يُقدمون على جريمة القتل عَمداً، دون وخز ضمير، ويخلقون الحجج والأعذار الطبّية والصحّية المتنوعة لتبرير عملهم وإراحة ضميرهم.

لكن لا بدَّ للوالدين المؤمنين، المدركين حجمَ المسؤولية ودقّةِ الموضوع، أن يواجهوا العديدَ من الضغوطات، وكيفيةَ التوفيق بين إيمانهم وقناعتهم والواقع المطروح عليهم، بين احترام الحياة وإبادتها. تتعَرَّضُ الزوجة، إذا ما رغبت بالجنين، إلى ضغوط من شريك الحياة أولاً الذي يُلقي الأمور على عاتق زوجته ويطلب منها الإجهاض. وهناك بعض الإكراه القَسري للأم العاملة في بعض المؤسسات مما يُشَكِّلُ خطرًا على متابعة عملها وبالتالي خطرًا على الإلفة في العائلة.

إنَّ رفض الكنيسة للإجهاض ليس رفضًا عَبَثيًا أو مُتعاميًا عن الواقع، بل رفضًا نابعًا من حاجة إنسانية ماسَّة للطفل وللأم معًا. تدرك المرأة حجمَ المسألة وترى ذاتها أمام واقع يتخطاها، وهي تنظر بوعي - أو بدون وعي - إلى أن الإجهاض مأساة إنسانية تتجاوز الأسرة وتطال المجتمع. ولا يمكن للأم أن تتجاهل تداعيات وآلام الإجهاض الجسدية والنفسية عليها وعلى عائلتها. والكنيسة، في تعليمها وموقفها، المرتكز على الإيمان والعلم، تؤكّد على إحترام الحياة واحتضانها لأنها ترى فيها أساسًا للعدالة والسعادة. لذلك تطلب، كأمّ ومعلّمة، من مؤمنيها التزام خدمة الحياة ومساندة الأمهات الحوامل على تجاوز الصعوبات وخلق الإمكانيات المؤاتية لاستقبال واحتضان الحياة الجديدة. كما تدعو الكنيسة عبر توعية الضمائر، ومواكبة المعنيين، بمحبّة وسخاء وثبات، وبالإصغاء إلى المخاوف والصعوبات، وتقديم المساعدات الملائمة لتجنّب الإجهاض. إنها دعوة إلى بناء ثقافةِ وحضارةِ الحياة، والشهادةِ لإنجيل الحياة. فما معنى العائلة دون حياة ؟

**ب- الإعاقة:**

يواجه الأهل، أمام واقع الأولاد المصابين بإعاقة جسدية أو عقلية، امتحانًا عسيرًا تتفاوت فيه المشاعر والمواقف المتنوّعة والمتناقضة بين الخيبة، والتمرد، والشعور بالذنب، والخجل، والرفض... والتسليم والقبول. ويطرحون على ذواتهم تساؤلات عديدة، ومنها: كيف يمكننا أن نتعايش مع هذا الولد؟ هل بإمكانه أن يكون سعيدًا في عالم يتجّه نحو مثالية الإنسان الأكثر جمالاً وتألّقًا وكمالاً وتنافسًا؟ هل يكون مقبولاً من إخوته وأخواته؟ ومن بيئته؟ ماذا يقول الناس عنا؟ وما هي نظرتهم إلينا؟ كلّها أسئلة تُعَبِّر عن القلق والمسؤولية في آن، ولا تجد لها أجوبةً جاهزة، بل تحتاج إلى مسيرة إيمانية ومُرافقة إنسانية وروحية.

أما على الصعيد الطبّي، وبالرغم من تطوّر العلوم والتقنيات، فلا يقدّم العلاج الطبّي حُلولاً شافية بشكل عام. ويتعرض الأهل، في غالب الأحيان، إلى ضغوطات قوّية لِحَثِّهم على التخلّص من الجنين. لذلك نرى عددًا متزايدًا من بينهم يخاف أبسط الأنواع من الإعاقة مهما كانت طفيفة. فهل أصبحت مسألة ولادة الطفل المعاق، بالنسبة للأهل وللمجتمع، عمليةً صحية أمّ عملية تحسين للنسل؟ لا شكَ أن الأهل يواجهون مسألةً ضميرية، ويعيشون ألماً لا يُستهان به فما هو خيارهم: القبول بحياة مجروحة أم بقتلٍ مُتَعَمَّد؟ لا بدّ هنا من ضرورة المرافقة لجهة تشخيص الإعاقة، وكشف الواقع لمساعدة الأهل على تقبّل الوضع المستجدّ، وإعطاء مسألة الإعاقة حجمها الطبيعي، دون زيادة أو نقصان، دون وهم أو تضخيم، مع توضيح الوسائل العلاجيّة الكفيلة بتخفيف أعباء الإعاقة. ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ التركيزَ في المواجهة والمرافقة يجب أن يتناول الولد لا الإعاقة. ولا يُستهان بعامل الوقت، إذا ما كان مقرونًا بحضورٍ عائلي سليم ومرافقة متأنّية، فإنه يساعد الأهل على حُسنِ التمييز، واتخاذ القرار الصحيح، وبالتالي القبول.

قال الطوباوي الجديد، البابا يوحنا بولس الثاني، لذوي أصحاب الإحتياجات الخاصّة والمصابين بإعاقة ما معناه: »إنَّكم باحتضانكم المصابين بإعاقة تُذَكرِّون العالم بأنَّ الإنسان أو الشخص البشري لا يقتصر على مؤهّلاته ومكانته في الحياة الإقتصادية، بل مخلوقٌ من الله وعلى صورة الله، ومحبوبٌ من الله لشخصه لا لأعماله«. ويبقى على العائلات والمجتمعات أن تكتشفَ غنى الأشخاص المصابين بإعاقة. فأين »الأصحّاء والمعافين« من البساطة، والصحّة، والصدق في العلاقة الإنسانية؟ وأين عائلاتنا من شهادة إيمانهم البسيطة والراسخة التي تنشر الفرح وتشيع المحبة؟ ألم يشملهم الرب بحنانه وعنايته حين قال: »تعالوا إليَّ يا جميع المُتعبين وحاملي الأثقال وأنا أريحكم«؟ وهل أجمل من أمٍّ تُضاعِف من حبّها وحنانها نحو ولدها المصاب بإعاقة؟ إن احتضان واحترام الحياة المجروحة يشير إلى خيار عائلة ومجتمع وحضارة أكثر إنسانية. أجل إنَّ قيمتَنا هي من قيمةِ قلبنا وإيماننا وإنسانيتنا.

**ج- الحرمان من الأولاد:**

يرى الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة في العائلات التي تُنجِبُ الأولاد دليلاً على بركة لله وسخاء الوالدين (الكنيسة في عالم اليوم عدد 50). ويقول كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية: »إن عذابَ الأزواج الذين يكتشفون أنهم عقيمون عظيم. قال أبرام لله: ما تعطيني؟ وأنا منصرف عقيمًا؟ (تك 5: 2) وراحيل تصرخ إلى زوجها يعقوب قائلةً: »هب لي ولدًا وإلاّ فإنّي أموت« (تك 30: 1). »ويُظهِرُ الإنجيل أنّ العقم الطبيعي ليس شرٌّا مُطلَقًا. وعلى الأزواج الذين، بعد استنفادهم كلّ لجوءٍ مشروع إلى الطب، يعانون من العقم، أن يشتركوا في صليب الربّ، ينبوع كلّ خصبٍ روحي. وبإمكانهم أن يُثبتوا سخاءَهم بتبنيّهم أولادًا مُهمَلين، أو بقيامهم بخدمات متطلّبة تجاه الآخرين« (عدد 2379).

ما هي الصعوبات التي يواجهها الزوجان في هذه المحنة؟ وكيف يعيشان هذا الألم؟ من البديهي أنَّ تتدافع الأسئلة لديهما: لماذا نحن؟ وأي معنى لحياتنا دون أولاد؟ وقد يؤثر المحيط العائلي والإجتماعي على شعور الزوجين بالعزلة والضيق. لذلك فإنَّ الصداقات الصدوقة، والقيام بالمشاريع، والتفاني في العطاء والخدمة، يسمح بتَرقّي الزوجين نحو الأفضل. لكن ما من أمر يُعوّض حبَّ الزوجين الراسخ. فالحبّ هو الحصن الحصين في هذه الحال. ويختبر الزوجان أنَّ تذوّق طعم الحب، والعمل على بنيانه، ومنح الوقت الكافي لكلّ منهما، يزيد من حظوظ تجديد عهد الزواج بينهما، ويملأ الفراغ الذي يشعران به. هذا لا يعني استسلامًا للواقع، بل قبولاً لكل ما هو جميل ومفيد في الحياة المشتركة، ومناسبة لاكتشاف مصادر أخرى للخصوبة والفرح الحقيقيين. من المعروف طبعًا أنَّ هناكَ نكسات تعترضهما في مسيرتهما، كما في كلّ صعوبة، غيرَ أن مواجهة هذه النكسات والتحدّيات تقتضي منهما العملَ على تجاوز مشاعر الحسد واليأس والفراغ... لقد أعطاهما الربّ من القدرة على التمييز لوضع الأولويات ورسم الحدود في العلاقات مع المحيط العائلي والاجتماعي، مما يدعوهما أحيانًا إلى تجنّب بعض الاجتماعات المزعجة. ويبقى أن حُبَّ الله لهما هو خير سند يجدانه في الصلاة والأسرار المقدّسة.

**هل يشكّل التبني جوابًا أو حَلاٌّ لهذا الحرمان؟**

تتفاوت الإختبارات في هذا المجال: منهم مَن يعتبر أن التبنّي قد يُخَفِّف من وطأة المحنة لكنه لا يعوّض الإنجاب الطبيعي، ومنهم من لا يرى دعوته العائلية في التبنّي. مهما يكن من أمر، فإنَّ التبنّي لا يُشَكِّلُ الحلَّ الوحيد لمسألة العقم والحرمان من الأولاد. إنها دَعوَةٌ خاصّة مُغايرة لمن يستقبل عطية الأولاد الطبيعية، ولكنها بحسب تعبير الطوباوي البابا يوحنا بولس الثاني يوم التقى العائلات المتبنيّة في يوبيل سنة الألفين: »إنَّ تبنّي الأولاد، واعتبارهم ومعاملتهم معاملة الأولاد الطبيعيين، يعني الإعتراف بأن العلاقة بين الأهل والأولاد لا تُقاس حصرًا بمعايير العلم الوراثي. إنَّ الحُبَّ الذي ينبثق عن هذا الرابط العائلي هو قبل كلّ شيء عطاء للذات. كما أن هذه العلاقة الناشئة تحمل من الودّية والحميمية والديمومة ما يجعلها مماثلة للعلاقة الآتية من الإنتماء البيولوجي«.

قُصارى القول، يُشكّل التبنّي مسعى إراديًا، وخطوة حُرّة غير مُلزِمَة لكل الأزواج.

**5- أية رسالة للعائلة اليوم؟**

تستلهم العائلة رسالتها من تعاليم الكنيسة ومن المفاهيم الأساسيّة لروحانية الزواج التي تأسست عليها. ومن اللافت في العهد بين الرجل والمرأة المَبني على الرضى المتبادل، وكلمة الله، والأمانة، والبركة على اسم الثالوث الأقدس، أن هذا العهدَ مُنفَتِحٌ على الحياة. وعندما تكون العائلة حاضنة للحياة فهذا يَعني أنَّ المشاركة في إعطاءِ الحياة، والمساهمة في استمرارية الجنس البشري هما غايتان أساسيتان: »أنموا واكثروا واملأوا الأرض« (تك 1: 28).

ولا تتجلّى حضانة الحياة في الخصب وإنجاب الأولاد وحسب، بل في العناية بهم، وتربيتهم تربية متكاملة تجعلهم أهلاً لتأسيس وبناء عائلة سعيدة ومقدّسة.

أجل، تكون العائلة حاضنة للحياة عندما يحترم الزوجان الحياةَ البشرية احترامًا مُطلَقًا منذُ اللحظة الأولى لتكوينها وحتى نهايتها الطبيعية. وتكون رسالة العائلة في التجنّد لخدمة الحياة. فالله أوكل إلينا الحياة البشرية لصونها بطريقة مسؤولة لنصل بها إلى كمالها في الحبِّ والتفاني.

أوليست بركة من عند الله أن تنقل العائلة صورة الله من إنسان إلى إنسان، ومن جيل إلى جيل؟ لقد أشركنا الله في عمل الخلق لتكون الحياة، الحقّة والوفيرة، زاخرةً بالحب والعطاء، وتنهل كرامتها من صورة الله، وقداستها من قداسة الله. تستند قيمةُ الحياة إلى سيِّد الحياة، الله الخالق الذي نُمَجِّدُه مع صاحب المزامير القائل: »أنتَ الذي كَوَّنَ كُليَتَيَّ ونسجتَني في بطن أمّي، أحمَدُكَ لأنَّكَ أعجزتَ فأدهشتَ. عجيبةٌ هي أعمالُكَ. رأتني عيناكَ جَنينًا وفي سِفرِكَ كُتِبَت جميعُ الأيام. وَصُوِّرَت قَبلَ أن توجَد« (مز136).

لقد أكَّد الإرشاد الرسولي، »في وظائف العائلة المسيحية في عالم اليوم«، على هوّية العائلة المؤسّسة على الزواج بكونها جماعة حياة وحب زوجي. ليست العائلة نتاج الثقافة، ولا نتيجة التطور، ولا نوعًا من الحياة الجماعية المرتبطة بتنظيم إجتماعي ما، بل هي مؤسسة طبيعية، سابقة لأي منظّمة قانونية أو سياسية، أرادها الله مباشرة. ولهذا دعاها الطوباوي البابا يوحنا بولس الثاني إلى أن تعرف ذاتها وتكون ما هي: »أيتها العائلة عليكِ أن تكوني أنتِ بحسب ما أرادك الله« (عدد 17). وبيّن هذا الإرشاد الرسولي أربعة واجبات للعائلة وهي : إنشاء شركة أشخاص، خدمة الحياة بنقلها وتربيتها، المشاركة في حياة الكنيسة ورسالتها كجماعة تؤمن وتنشر الإنجيل، وجماعة في حوار مع الله وفي خدمة الإنسان (عدد 18 -62).

ونستخلص مما ذكرنا آنفًا رسالة العائلة حاضنةً للحياة بجملة عناصر نأتي على ذكر تسعة منها وهي:

- أن تكون العائلة، أولاً، جماعة محبة تعيش الشركة بأبعادها كافة. ولكلّ من أفرادها مكانته واحترامه ودوره في بنائها، صغيرًا كان أم كبيرًا، مُصابًا بإعاقة أو معافى.

- أن تكون العائلة، ثانيًا، مهدًا للحياة عندما تعتبر الحياة البشرية هبة من الله، مقدّسة وكريمة، منذ اللحظة الأولى لوجودها حتى نهايتها الطبيعية.

- أن تعي العائلة، ثالثًا، أنها تستقبل الحياة في حضنها مشاركةً في عملية الخلق التي أرادها الرب على صورته ومثاله.

- أن تدرك العائلة، رابعًا، دعوتها في قلب الكنيسة الأم والمعلّمة، كما دعاها الطوباوي البابا يوحنا بولس الثاني »كنيسة منزلية« تقول »نعم للحياة«.

- أن تحافظ العائلة، خامسًا، على أخلاقيات الحياة، وكرامة الشخص البشري في درءِ الأخطار عنها، حاملةً رسالة نقل الإيمان والتربية على القيم الإنسانية والروحية والاجتماعية.

- أن تواجه العائلة، سادسًا، الروحَ العالمية، والذهنية الاستهلاكية، والانتهاكات الإعلامية والإعلانية، بوعيها تصميم الله الخلاصي لها، لتنمو على روح الصدق والغفران، على فرح الخدمة والقيام بالواجب بتفانٍ وإخلاص، والمشاركة الواعية في سرّ الصليب.

- أن تسعى العائلة، سابعًا، إلى تأمين المقوّمات الأساسية لحياةٍ كريمة ولائقة بالإنسان، شاهدةً لربّها بواسطة تماسكها على صورة العائلة الثالوثية، وتوفير حقوق العيش كالعمل في إطارٍ من المساواة والعدالة والتضامن.

- أن تترجم العائلة، ثامنًا، انفتاحها على الحياة في تعزيز قدراتها كي تبقى مكان الانتماء والفرح والحب، مكان الانفتاح والنمو، مكان المشاركة والتضامن والإخاء وعيش الحرّية.

- وأن تكون العائلة، تاسعًا، حاضنةً للحياة عندما تجعلُ من ذاتها مكانًا للفرح والعيد مغمورةً بسلامِ المسيح وفيض نعمه.

**6- أهمّية التربية على خدمة الحياة:**

لقد تعرّضت العائلة، وما تزال، إلى هجمة غريبة عن تراثها وتقاليدها وتربيتها تبثّها بعض وسائل الإتصال والإعلام والإعلان. وتتضمّن هذه الوسائل نماذج من المواضيع المنافية للأخلاق، وتنقل في الوقت عينه الكثير من القيم الهدّامة، أمثال نماذج لعائلات مفكّكة، وعلاقات منحرفة فيها الكثير من التشويه والعنف والإجرام والمتعة. إنّها تشكّل خطراً كبيراً على القيم التربوية الإنسانية والإجتماعية والمسيحية، لأنها تنظر إلى الإنسان كسلعة تجارية لا أبعاد روحية له. ويمكن لمؤسسات الكنيسة والمجتمع والدولة أن تتعاون على معالجة ومواجهة هذا الغزو العنيف، من أجل خدمة العائلة ومساعدتها على الثبات، والقيام بدورها في نشر ثقافة الحياة، فتكون إنجيلاً للحياة.

ترتكز هذه المعالجة، بشكل أساسي، على إيلاء التربية أهمّيتها على الصعيد الإنساني والروحي والاجتماعي.

- على الصعيد الإنساني: لا بُدَّ من تناول معاني الأبوّة المسؤولة والأمومة المسؤولة في التحضير للزواج. كما يتناول توجيه الأهل في تربية الأولاد، وفي القضايا الأخلاقية العائلية، مثل مسائل الإنجاب، وتنظيم النسل، وسائر أخلاقيات الحياة من إجهاض وإعاقة وميتة مُيَسَّرة أو قتل رحيم... أمّا الإرشاد العائلي فمن الضرورة أن يهتمّ بمشاكل العائلة من مصاعب نفسيّة ومشاكل زوجيّة، وطلاق، وانحراف الأحداث، وإدمان، وبطالة... إلى جانب رعاية الأمومة والطفولة كالإهتمام بالأمهات العاملات ومراكز حضانة الأطفال...

- على الصعيد الروحي: تتناول التنشئة الروحيّة للعائلة حثّ وتشجيع العائلات على المشاركة واللقاء أثناء الصلوات والإحتفالات الطقسية، وفهم معانيها وممارستها في العائلة. ومن الضروري والمهم التربية على المحبّة والفضائل العائلية: كالديمومة والإخلاص والتضحية والإنجاب المسؤول... أمَا التعليم المسيحي للعائلة فهو مسؤولية العائلة والرعية والمدرسة.

- على الصعيد الإجتماعي: لا بُدَّ من توعية الأولاد والشباب ومرافقتهم على حسن إشراك العائلات في مجالات التربية والتعليم، ضمن برامج إجتماعيّة وتعليميّة، من شأنها إدخال كلّ ما يؤمّن الحفاظ على التراث المسيحي تاريخاً وأدباً وثقافة... ولا تغفل العائلة عن السهر على أفرادها وحمايتها من العشرة الرديئة، كما تولي آداب السلوك أهمّيتها في حسن التعاطي وبناء العلاقات السليمة.

باختصار، إنَّ التربية على خدمة الحياة هي مهمّة الجماعات العائلية والرعوية والمؤسسات التربوية والإستشفائية وسواها...إلى جانب رعاية الدولة بمؤسساتها المختصّة كافة.

**الخاتمة:**

نعود ونذكّر، في الختام، بأنَّ اللقاء العالمي القادم للعائلات يُشَكّل مناسبةً ممتازة للتفكير بالعمل والعيد في قلب العائلة المتّحدة، المنفتحة على الحياة، المندمجة في الكنيسة والمجتمع، والمتنبّهة لنوعيّة العلاقات في العائلة كما هي متنبّهة لأوضاعها الإقتصاديّة. ويكشف لنا الكتاب المقدّس، منذ بدايته في مطلع سفر التكوين (تك 1-2 )، بأنّ العائلة والعمل وأيام الآحاد والأعياد والبطالة هم عطايا وبركات من لدن الرب تساعد العائلة على كسب قوتها وعيش كرامة الحياة بكلّ أبعادها الإنسانيّة.

إنّنا نسأل الله تعالى أن يغمر عائلاتنا بوافر النعم والبركات كي تبقى حاضنةً للحياة في كينونتها ووحدتها وأعمالها وأعيادها، بشفاعة الثالوث الأقدس، والعائلة المقدّسة.

أيّها الآب السماوي، يا من منك كلّ أبوّة في السماء وعلى الأرض، إجعل بابنك الوحيد يسوع المسيح المولود من مريم، وبروحك القدّوس ينبوع المحبّة الإلهيّة، كلّ عائلة من عائلاتنا مَعبداً للحب والحياة ، آمين !

أدما – كسروان في 12 حزيران سنة 2011

**+ أنطوان - نبيل العنداري**

النائب البطريركي العام

على منطقة جونيه